الفصل السابع عشر

السُّم

كان ألكسندر ليتفينينكو قد مات حقًّا عندما اتُّهم علنًا فلاديمير بوتين بقتله، إذ كانت النظائر المشعة تدمر جسده ببطء خلال ثلاثة أسابيع، وكما لو كانت (قنبلة نووية صغيرة) انفجرت بداخله[1]. الأطباء، الذين اشتبهوا في البداية أنه قد أكل السوشي الملوث، لم يحددوا سبب مرضه الغامض حتى بعد فوات الأوان: جرعة من عنصر البولونيوم 210، كان قد ابتلعها- على ما يبدو- في حانة مغطاة بالألواح الخشبية في فندق مايفير ميلينيوم في لندن يوم 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2006م، بعد اجتماع قصير مع الفريق الروسي الذي يزور لندن، ويأمل في إغرائهم في مشاريعه التجارية الجديدة: المعلومات المتداولة عن السلطة الروسية ورجال الأعمال، التي تتخذ اليوم أهمية جديدة حيث بوتين هو الآمر الناهي فيها. عندما عاد إلى منزله في ذلك المساء، بدأ يشعر بالمرض، وبعد ثلاثة أيام كان في المستشفى، حيث ذبل ذبولًا مؤلمًا، وتوفي ليلة 23 نوفمبر/تشرين الثاني عن عمر يقارب ثلاثًا وأربعين سنة فقط. وفي صباح اليوم التالي ظهر صديقه وزميله، أليكس غولدفارب، أمام ثلة من الصحفيين وكاميرات التلفاز وقرأ بيان ليتفينينكو الذي أملاه في أيام موته:

«أكاد أسمع بوضوح خفق جناحي ملك الموت»، ومضى البيان بلغة إنجليزية أنيقة على نحو غير مألوف، والتي تعلمها ليتفينينكو بصعوبة خلال السنوات التي قضاها في المنفى. «قد أكون قادرًا على الهروب منه، ولكن أود أن أقول لكم إن ساقيَّ لا تتحركان بالسرعة التي أود. أظن أن الوقت مناسب لقول شيء أو شيئين للشخص المسؤول عن مرضي: قد تنجح

في إسكات الرجال، لكن هذا السكوت لن يأتي من دون ثمن، لقد أظهرت نفسك أنك همجي ووحشي بقدر ما زعم نقادك المعادون ذلك. لقد أظهرت أنك ليس لديك أي احترام للحياة والحرية، أو أي قيمة حضارية، وأظهرت نفسك غير جدير بالمكتب الذي تشغله، وأنك غير جدير بثقة الرجال والنساء المتحضرين. قد تنجح في إسكات رجل واحد، لكن عويل الاحتجاج من جميع أنحاء العالم- يا سيد بوتين- سيظل يتردد صداه في أذنيك ما دمتَ حيًّا»[2].

لم يستقر ليتفينينكو في منفاه هادئًا بعد أن هرب بطريقة ماكرة من روسيا في عام 2000م، إذ طاردته الوكالة التي خانها عندما جاهر باتهاماته أمام الجمهور في مؤتمر صحفي سوريالي في عام 1998م، قبل فجر عهد بوتين. لم يندمج اندماجًا كاملًا في الحياة الإنجليزية، وبقي داخل عالم «لندنغراد» المعزول الذي يعج بالمنفيين المهاجرين، وكبار رجال الأعمال المتجولين. لم يختلط اجتماعيًّا بالأغنياء الروس الذين أغرقوا لندن بأموالهم- فقد كانت وسائله متواضعة جدًّا- وإنما مع الدوائر التآمرية الغامضة لأشرس منتقدي بوتين، ومن أبرزهم بوريس بيريزوفسكي، الذي استمر يحيك المؤامرات لتشويه سمعة الرجل الذي حمَّله مسؤولية إخفاقه في تحقيق مصالحه السياسية والمالية.

بتمويل بيريزوفسكي وإلهامه ألَّف ليتفينينكو كتابًا مع يوري فيلشتنسكي، المؤرخ المهاجر في الولايات المتحدة، اتهم فيه الاستخبارات الفيدرالية FSB التي يعمل بها بوتين بأنها تقف وراء تفجيرات عام 1999م، وأنها هي التي دفعت ببوتين إلى السلطة. حمل الكتاب عنوان **جهاز الاستخبارات الفدرالي يفجر روسيا**، وكان منحازًا من سطوره الأولى: «لكن لا أحد سوى المجنون الذي يرغب في جَر روسيا إلى أي نوع من الحرب، فضلًا عن الحرب في شمال القفقاز، وكأن الحرب الأفغانية لن تحدث أبدًا»[3]. نسخة الفيلم التي تلت صدور الكتاب شوهدت سرًّا في موسكو، وانتشرت على نطاق واسع في الخارج. الحملة التي مولها بيريزوفسكي كانت جزءًا من سعيه إلى الإطاحة ببوتين.

أتبع ذلك ليتفينينكو بكتابه الثاني: **مجموعة لوبيانكا الجنائية**، وهو يصوِّر خَلَف الـ(كي جي بي) بأنه أكثر بقليل من مافيا أو تنظيم إرهابي متورط في الفساد والجريمة. كان ليتفينينكو يحرق كل الجسور التي تربطه بماضيه وخدمته في الأجهزة الأمنية، بتهور يصل في بعض الأحيان إلى الجنون. وأصبح شغله الشاغل بوتين وحكمه، ويتداول المعلومات مع قدامى المحاربين في الـ(كي جي بي)، وأخرى مع وكلاء الاستخبارات في بريطانيا وإسبانيا، وربما في أماكن أخرى، وكان يتوق إلى متابعة أي معلومة مهما كانت صغيرة يسمعها، ولديه الاستعداد لتقبل فرضية أي مؤامرة مهما كانت كبيرة، وكان ينسج المؤامرات أحيانًا بعيدًا عن الواقع معتمدًا على الإشاعات والخيال المتشنج.

في نهاية حياته القصيرة، أثارت فضوله الشائعات التي تتحدث عن مثليَّة بوتين التي تستند في جزء منها إلى حكاية قصيرة لا أساس لها في مذكرات يوري سكوراتوف، المدعي العام السابق، إذ يستذكر أن بوتين أخبره مرة أنه يعتقد بوجود شريط مصور يظهره في لقاء جنسي. وأصبح شريط الفيديو أسطورة بين نقاد بوتين، من بينهم الضباط السابقون الذين عُزلوا عندما تولى بوتين الـ FSB في عام 1998م، الذين يدعون أن نسخًا مختلفة فرزت في الخارج لحفظها، ولكن لا يبدو أن أحدًا منهم قد اطلع عليها، وتختلف الروايات عن لقائه بشاب عام 1984م، عندما تدرب- وهو ناشط- على الأجانب في الـ(كي جي بي)، ثم على اللقاءات الغرامية في وقت لاحق في نفس الشقة التي سجل سكوراتوف فيها الشريط[4]، وفي ذهن ليتفينينكو يتحول الاحتمال بكل سهولة إلى حقيقة مطلقة.

ففي 5 يوليو/تموز، وقبل أقل من أربعة أشهر من تسميمه، ألمح ليتفينينكو إلى الحياة الجنسية لبوتين بعد أن رفع بوتين بخشونة قميص صبي صغير يزور الساحة الحمراء وقبله على معدته، وقد ظهرت مقالته هذه على الموقع الإلكتروني لحركة التمرد في الشيشان، القضية التي تبناها ليتفينينكو على نحو متزايد بعد مصادقة منفي آخر في لندن، وأصبح هذا الشخص المتحدث باسم المتمردين أحمد زكاييف، الذي انتقل إلى منزل في الشارع نفسه الذي يقيم فيه ليتفينينكو في شمال لندن. حذره أوليغ كالوجين، الجاسوس في

المنفى، عندما التقيا قبل أشهر فقط من وفاته، أن المتاجرة بالغمز الذي لا أساس له يمثل خطورة عليه؛ قال له: «ساشا، لقد عشنا ما فيه الكفاية»[5]. ولكن ليتفينينكو، الخائن في نظر الاستخبارات الروسية (FSB)، إذ كان يفترض السلامة في المنفى، فقد فقَدَ أي إحساس بالحذر، حتى ابنته كانت ترى أنه «مجنون بدرجة ما»، وقالت: إن أي حديث له أو نقاش معه سيؤول في النهاية إلى نظام بوتين، وأضافت: «لقد عصف بنفسه حتى خرجت عن سيطرته، وبدا كأنه قد فقد عقله»[6].

تابع ليتفينينكو العمل من أجل بيريزوفسكي، ولكن علاقتهما تضاءلت، وبحلول عام 2006م خفَّض بيريزوفسكي المعونة التي كان يمنحها له لإعالة أسرته، فبحث عن دخل ثابت وقدَّم نفسه على أنه المحقق والباحث في الشركات الذي يمكن أن يقدم النصح في إدارة أخطار الأعمال في روسيا. معرفته بأعمال جهاز الأمن الفيدرالي الداخلية، وهوسه بجمع المواد، ورغبته في المساهمة، أوقعته في متاهة من التحقيقات في قلب روسيا بوتين.

في أبريل/نيسان 2006م سافر إلى إسرائيل للقاء أحد الشركاء السابقين لخودوركوفسكي في شركة يوكوس، ليونيد نيفزلين، الذي قال لاحقًا إن ليتفينينكو أورد معلومات «تسلط الضوء على الجوانب الأكثر جوهرية في قضية يوكوس»[7]، مع أن طبيعة المعلومات التي أوردها لم تكن واضحة بدقة. وبعد شهر سافر إلى إسبانيا، حيث التقى ضباط أمن والمدعي العام الصليبي، خوسيه جونزاليس جرندة، الذي ناقش معه النشاطات والمواقع وعددًا من الشخصيات في المافيا الروسية. وقدم فرضية- أيدها جرندة في وقت لاحق- أن الحكومة الروسية من خلال جهاز الاستخبارات الفيدرالي FSB وفروع المخابرات الخارجية والعسكرية، تسيطر عليها عصابات الجريمة المنظمة، وتستخدمها لتهريب الأسلحة، وغسل الأموال، وتنفيذ الاغتيالات، «وكل ما لا تستطيع الحكومة أن تقبله بصفتها حكومة».

كان جرندة على خُطا المجرمين الروس في إسبانيا، ومن ضمنهم رئيس مافيا شهير يدعى جينادي بتروف، الذي كان ناشطًا في مجال الأعمال حين كان بوتين في بطرسبورغ، وكان مسهمًا لمدة ما في المؤسسة التي وحدت دائرة الأصدقاء المقربة من بوتين (مصرف

روسيا)[8]. أبقى ليتفينينكو على هذه الزيارات سرًّا، وكان يسافر بجواز سفر بريطاني حصل عليه عندما مُنح حق اللجوء، لكن وقتها أقحم نفسه عن قصد في دائرة الأضواء العامة التي كانت حتى وفاته إحدى جرائم القتل الصادمة عند نقاد بوتين.

في ليلة 7 أكتوبر/تشرين الأول 2006م، في عيد ميلاد بوتين الرابع والخمسين، أحد القتلة تتبع آنا بوليتكوفسكايا في رواق شقتها وأطلق عليها أربع رصاصات وهي تقف في المصعد، ثم ألقى المسدس جانبها، ليكون توقيعَه على عقد القتل المكلف به من طرف ثان. وكان القصد من قتلها إحداث صدمة، وقد حدثت. بوليتكوفسكايا لم تخضع قط في تغطيتها الحرب في الشيشان، حتى وإن تحوَّل عنها معظم الروس إذ أصبحت عملية مكافحة تمرد طاحنة تنفذها اليوم القوات الموالية لرمضان قاديروف، نجل الزعيم الموالي لبوتين، أحمد قاديروف، الذي اغتيل في جروزني عام 2004م.

قبل يومين من اغتيال بوليتكوفسكايا، كان قاديروف الأصغر بلغ الثلاثين، وهذا يؤهله من الناحية القانونية لتولي منصب رئيس الجمهورية، وقد عيَّنه بوتين رئيسًا لوزراء الجمهورية، وهو منصب شكلي، لأن قاديروف ومقاتليه لديهم السيطرة المطلقة في الشيشان.

في يوم اغتيالها كانت بوليتكوفسكايا قد انتهت من إعداد مقال عن تعذيب مهاجر شيشاني من أوكرانيا، تعرض للضرب والصدم الكهربائي حتى اعترف بارتكاب جرائم قتل، في مثال آخر للرعب، وإن لم يكن مثالًا استثنائيًّا عن وحشية الحرب الروسية (نشرت صحيفة نوفايا غازيتا، التي عملت فيها، المقال بعد ستة أيام من وفاتها)، حتى إنها تساءلت هل لهذه التقارير عن فظائع الحرب أي تأثير في السكان الذين يدعمون ضمنيًّا التكتيكات القاسية التي تنتهجها الحكومة، من خلال عدم اكتراثهم بها. ووُجِد في حاسوبها مقال آخر بعنوان (**ما الذنب الذي اقترفته؟**)، كانت ترثي فيه ما وصلت إليه الصحافة في روسيا، وكتبت تقول: «لم أكن أسعى أن أصبح في حالتي المنبوذة هذه، التي جعلتني أشعر أنني كما الدلفين على الشاطئ».

انتقدت في ذلك المقال بحدة دعم بوتين لقاديروف الصغير، وكتبت أن بوتين عينه رئيس وزراء الشيشان «متجاهلًا حقيقة أن الرجل معتوه بالكامل، محروم من التعليم، والعقل، أو من أي موهبة تميزه سوى الفوضى والسرقة العنيفة»[9].

مع ذلك، فحتى اليوم أثبتت إستراتيجية بوتين في الشيشان أنها فعالة بلا رحمة، فقد حوصر أصلان مسخادوف، الرئيس المنتخب للجمهورية خلال فترة الاستقلال الوجيزة بين عامي 1996م و1999م، وقُتل، في مارس/آذار 2005م، في قبوٍ لا يبعد أكثر من اثني عشر ميلًا من جروزني؛ وقُتل أيضًا بديله، الزعيم السياسي للتمرد، عبد الحليم سعيدولاييف، في وقت لاحق بعد سنة؛ إذ خانه مُخبر كان قد سخَّره قاديروف، مقابل ثمن جرعة من الهيروين؛ وبعد أشهر، في يوليو/تموز 2006م، وقع انفجار في أنغوشيا، الجمهورية المجاورة للشيشان، قُتل فيه شامل باساييف، القائد العسكري سيئ السمعة، والإرهابي المعروف الذي نظم حصار نورد أوست وبيسلان، وعشرات الهجمات الأخرى.

ادعت الـ FSB أنها عملية خاصة، في حين ادعى المتمردون أنه مجرد حادث، ولكن التأثير كان مسلَّمًا به، فمسلسل القتل قطع رؤوس قيادة التمرد عن جسدها التي قاتلها بوتين منذ اللحظة التي تولى فيها السلطة، وهو ما دفع بأتباعها للاختباء في أعماق الأرض. كانت التكلفة في الدماء والأموال غير عادية، مع آلاف الجنود الروس الذين قُتلوا، وآلاف الشيشان الذين تشردوا أو (اختفوا). قد تكون الوحشية والعنف والإفلات من العقاب تكتيكات سياسية وأمنية قمعية ميزت كل روسيا، ولكنها تضخمت في الجبال وجنوب الحدود، وخلَّفت الحرمان من الحقوق، ومظالم يمكن أن تتفاقم إلى تمرد إسلامي بألوان مختلفة يصعب على السلطات إحباطه.

وبعد فإن تكتيكات بوتين، ودعمه لقاديروف الصغير، نجحت في سحق حركة استقلال الشيشان، وبعد ثلاثة أشهر من وفاة بوليتكوفسكايا، عيَّن بوتين- مستخدمًا سلطته التي فرضها بعد بيسلان- قاديروف الرئيس الجديد في الشيشان، وكان أكثر بقليل من حاكم ولاية مستبد، لكن بوتين رد جميل ولائه للكرملين بمنحه السيادة المطلقة للتصرف في

الشيشان كما لو أنها مزرعة له، وهو ما فعله بقسوة لا ترحم على الأعداء، والنقاد، والناس؛ مثل بوليتكوفسكايا التي كانت واحدة من آخر ضحايا الحرب المنتصرة لبوتين.

في عام 2008م، وفي وقت متأخر جدًّا بالنسبة إليها لممارسة خفة دم لاذعة ضدها، أطلق قاديروف على جزء من الشارع الرئيس في العاصمة المهدمة جروزني- الذي أعيد بناؤه مؤخرًا بأموال هائلة من الميزانية الاتحادية- اسمها، وفي وسط المدينة التي كانت قد سويت بالأرض، وبناء على أوامر من قيادة بوتين فقد أصبح اسم شارع النصر شارع بوتين.

نظرًا لأهمية بوليتكوفسكايا، فقد لاقى قتلها اهتمامًا دوليًّا هائلًا، وصمتًا واضحًا من الكرملين؛ لأنه كان لديها جواز سفر أمريكي، إذ ولدت في نيويورك لدبلوماسيين سوفييتيين في الأمم المتحدة في عام 1958م؛ ومن ثم فقد سلَّم السفير الأمريكي، ويليام بيرنز، احتجاجًا رسميًّا عبَّر فيه عن قلقه، وطالب بإجراء تحقيق شامل في وفاة مواطنة أمريكية. والتقى نائب وزير الخارجية أندريه دينيسوف، الذي بدا مصدومًا من القتل، وأصر على أن «لا أحد في موقع السلطة له أي علاقة بالجريمة»، مضيفًا أن «أفرادًا كثيرين يمكن أن يكونوا مستفيدين من موت بوليتكوفسكايا»[10]، ولكن لم تقل وزارة الخارجية ولا الكرملين أي شيء على الإطلاق. وقليلون مَن لديهم السلطة للتحدث، وخاصة عن حالة حساسة جدًّا كهذه، إلى أن أشار الرئيس نفسه إلى الخط الرسمي الذي سيكون، ولم يتفوه بوتين بشيء إلا بعد ثلاثة أيام، في اليوم الذي دفنت فيه بوليتكوفسكايا حيث هطلت أمطار غزيرة مع آلاف المشيعين الذين اصطفوا لإلقاء النظرة الأخيرة على نعشها.

كان بوتين قد وصل في ذلك اليوم إلى دريسدن، مكان عمله القديم في الـ(كي جي بي)، للقاء أنجيلا ميركل، المستشارة الجديدة التي حلت محل شرودر، مع رجال الأعمال؛ لتشجيع روسيا في التوسع في مجال الطاقة. عندما ظهرا معًا، انضمت ميركل إلى الإدانة الدولية لاغتيال بوليتكوفسكايا، لكن بوتين لم يقل شيئًا في تعليقاته، وقد تطرق للموضوع فقط عندما تبعه أحد الصحفيين الألمان بسؤال عن ذلك، قال بوتين: إنها «جريمة وحشية فظيعة»، لكنه قلل بعد ذلك من شأن العمل الصحفي، وأشار إلى أن الدافع الحقيقي لقتلها هو الإساءة

لسمعة روسيا، وقال: «كانت هذه الصحفية من أشد المنتقدين للسلطات الحالية في روسيا، ولكن- كما يعرف الخبراء، وكما يدرك الصحفيون، وكما أعتقد- كان تأثيرها في الحياة السياسية الروسية طفيفًا للغاية»، إن قتلها وجَّه ضربة كبيرة للسلطات أكثر من أي شيء كتبته. وشرح الموضوع في وقت لاحق من تلك الليلة، عندما التقى مسؤولين روسًا وألمانًا في المنتدى نصف السنوي، المعروف باسم **حوار بطرسبورغ**؛ بأن اغتيال بوليتكوفسكايا قد دبره أعداء روسيا، وأصبح هذا موضوعًا متكررًا: أعداء روسيا، وأعداء بوتين، والتآمر لتشويه سمعته، قال لهم: «لدينا معلومات موثوقة ومتسقة أن كثيرًا من الناس الذين يهربون من وجه العدالة الروسية لديهم فكرة أنهم سيستخدمون شخصًا ضحيةً، لخلق موجة مضادة معادية للروس في العالم»، وهذا هو بالضبط ما سعى ليتفينينكو لفعله، إذ عدَّ بوليتكوفسكايا صديقة له كلما زارت لندن، وتبادلا المعلومات حول الشيشان والأجهزة الأمنية العاملة هناك[11]، وموتها أغضبه.

يوم 19 أكتوبر/تشرين الأول، قبل أقل من أسبوعين من مرضه، حضر أحمد زكاييف حلقة نقاش في لندن حول اغتيال بوليتكوفسكايا، وأعلن أن بوتين نفسه يتحمل المسؤولية، ونهض من بين الحشد ليخاطب الحضور، وبدأ كلامه بإنجليزية متعثرة، ثم تابع بالروسية، وجلست امرأة بجانبه تترجم. وبعد أن أكَّد أنه ليس لديه ما يخفيه، وكرر ذلك عدة مرات، وأن الصحفيين يجب ألا يترددوا في اقتباس تصريحاته، قال إن بوليتكوفسكايا نفسها تلقت تحذيرًا بأن بوتين قد وضعها على قائمة المستهدفين، قال: «أنا أدرك جيدًا أن شخصًا واحدًا فقط في روسيا يستطيع أن يقتل صحفيًّا بوزن آنا بوليتكوفسكايا؛ إنه بوتين، لا أحد غيره».

بعد ثلاثة عشر يومًا، قال إنه جمع (أدلة) ستساعده بكل تأكيد على إثبات الحالة، وتبادل هو والمحلل الأمني الإيطالي ماريو سكاراميلا، الذي تاجر بالأسرار نفسها التي تاجر بها، رسائلَ إلكترونية بعث بها روسي آخر في المنفى يزعم أنها تحتوي على قائمة اغتيالات من جمعية قدامى المحاربين في الـ(كي جي بي) تدعى قائمة الكرامة والشرف، وكان اسم بوليتكوفسكايا مدرجًا في القائمة، وكذلك كان ليتفينينكو وبيريزوفسكي، ومع ذلك

أبقى ليتفينينكو حارسه عندما غادر اجتماع غداء مع الإيطالي ليلتقي روسيَّين أصبحا أكثر المشتبه فيهم في مقتله: أندريه لوجوفوي وديمتري كوفتون.

كان لوجوفوي أيضًا من قدامى المحاربين في قسم الـ(كي جي بي) الذي وفر الحماية للمسؤولين الحكوميين، وكان مسؤولًا أمنيًّا ذات مرة في محطة التلفاز التي يسيطر عليها بيريزوفسكي، ولديه اليوم شركة أمنية تسمى ناينث ويف (الموجة التاسعة)، وبقي على اتصال مع بيريزوفسكي. أما كوفتون فكان صديق الطفولة للوجوفوي، وشغل منصب النقيب في فرع المخابرات العسكرية في الجيش الأحمر السوفييتي في ألمانيا الشرقية، ويمتلك شركة استشارات الأعمال. ليتفينينكو يعرف جوفوي من خلال علاقته مع بيريزوفسكي، وكان حريصًا على إدخاله في دائرة اتصالاته، التي شملت إرينيس، وهي شركة أمنية عمل فيها ليتفينينكو في بعض الأحيان مستشارًا. وتعرَّف جوفوي كوفتون خلال تلك الزيارة في أكتوبر/تشرين الأول، اجتمعا في إرينيس وبعد ذلك في مطعم صيني. كشفت السلطات في بريطانيا في وقت لاحق أن أول محاولة لقتل ليتفينينكو حدثت في شركة أمنية، وذلك باستخدام السم الإشعاعي نفسه[12]، فقد شعر بالمرض بعد ذلك، وتقيأ في تلك الليلة، لكنه تعافى.

والتقى الثلاثة مرة أخرى في نوفمبر/تشرين الثاني، في اليوم الذي مرض فيه مرضًا خطيرًا، كان ليتفينينكو هو من أصر على لقائهم بسرعة في هذا الوقت، قبل الاجتماع المقرر في صباح اليوم التالي، وكان يتوق لنقل ما علمه من الرسائل الإلكترونية التي نقلها له ماريو سكاراميلا عند الغداء. كان اجتماعهم قصيرًا في حانة باين في مايفير ملينيوم؛ لأن لوجوفوي كان مسافرًا مع أسرته، وقد قطع تذاكر لحضور مباراة كرة القدم بين أرسنال وسيسكا موسكو في تلك الليلة في ملعب الإمارات. عندما وصل ابنه إلى الحانة، قدمه ليتفينينكو، ثم غادر لتغيير ملابسه لمشاهدة المباراة. ظن كوفتون أن ليتفينينكو بدا غريبًا مهتاجًا، وربما ليس على ما يرام، قال: «لم يغلق فمه»[13]، وحين كان كوفتون ينتظر لوجوفوي في بهو الفندق، تشبث ليتفينينكو به على غير مريح، قال كوفتون: «كنت واقفًا قريبًا منه»، وأضاف: «لم يتوقف عن الكلام».

بعدما تعرفت السلطات البريطانية نوعَ السم الذي استخدم لقتل ليتفينينكو؛ البولونيوم 210، كانت آثاره موجودة في كل مكان التقى فيه الرجال الثلاثة، ولم تكن آثاره موجودة في المكان الذي التقوا فيه في الأول من نوفمبر/ تشرين الأول، وإنما في لقاءات سابقة لهم في السادس عشر والسابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول، حيث كان السم يلوث الغرف التي أقاموا بها في الفندق، وقاعة المؤتمرات التي اجتمعوا بها (إرينيس)، وعلى المقعد الذي جلس عليه لوجوفوي في ملعب الإمارات، وعلى الوسائد في نادي التعرِّي، وعلى النارجيلة التي استخدمها في مطعم دار مراكش، المطعم الذي زاره لوجوفوي وكوفتون، وكانت آثاره موجودة كذلك في طائرتي الخطوط الجوية البريطانية اللتين تعملان بين موسكو ولندن، وحتى على الأريكة في منزل زوجته السابقة في مدينة هامبورغ بألمانيا، وكان كوفتون زارها قبل أيام فقط من سفره ثانية إلى لندن للقاء ليتفينينكو، وتبعًا لشهادة لم تنشر على الملأ إلا بعد سنوات من وفاته، أنه سأل صديقًا له عن قدرته على إحضار طاهٍ قادر على تقديم جرعة من السم.

سُم البولونيوم 210 يتكوَّن بصورة طبيعية وبكميات صغيرة في القشرة الأرضية، وفي الهواء ودخان التبغ، لكن عندما يصنع يبدو كأنه معدن فضي اللون مطاوع، وكان يستخدم قادحًا للأسلحة النووية، وأُنتج بكميات صغيرة للتخلص من الكهرباء الساكنة في الآلات الصناعية، وإزالة الغبار عن الأفلام وعدسات الكاميرا، ويتحلل عن طريق انبعاث جسيمات ألفا التي تنتشر بوصات قليلة ويمكن إيقافها بسهولة عن طريق ورقة أو جلد شخص، وخطرها يمكن في ابتلاعها فقط؛ فهي مادة يسهل التعامل معها، ولا تمثل أي خطورة، لكنها سامة لدرجة قاتلة، وهي سلاح مبتكر عمومًا. وتأتي سبعة وتسعون في المئة من الإمدادات الصناعية في العالم من أفانغراد، وهي منشأة نووية روسية، تخضع لحراسة مشددة في مدينة ساروف، وفيها صنَّع الاتحاد السوفييتي أول قنبلة ذرية.

كما حدث مع اغتيال بوليتكوفسكايا، كان بوتين مسافرًا عندما انفجر خبر وفاة ليتفينينكو في وسائل الإعلام العالمية المحمومة، وكان هذه المرة في هيلسنكي لعقد قمة مع

الاتحاد الأوروبي التي لم تأت بشيء جديد، وبينما كان يستعد لعقد مؤتمر صحفي تتوَّج فيه هذه الاجتماعات، كما جرت العادة، أعلن المتحدث باسم بوتين ديمتري بيسكوف خبر موت ليتفينينكو، لمعرفته مقدمًا أنه سيسأل، ولا بد من الإجابة. كان بوتين غاضبًا مرتابًا؛ فهو المتهم شخصيًّا بتورطه في وفاة ليتفينينكو[14]، وكان يعتقد هو ومساعدوه أن التوقيت لا يمكن أن يكون مصادفة، بل إنه توقيت استفزازي فقط.

عندما ظهر مع رؤساء وزراء فنلندا وأيسلندا والنرويج، ومع اثنين من كبار المسؤولين في الاتحاد الأوروبي، بدت مظاهر عدم الارتياح على بوتين واضحة؛ كان يتلوى، وغير مستقر، ويحدق في السقف، وأشار مساعدوه إلى الصحفيين، على هامش المؤتمر، أن بوتين أصابته نفحة برد[15]، لكن من وجهة نظر بيسكوف كان يكظم الغضب الذي أحس به.

جميع القادة الذين تحدثوا من المنصة زعموا أن الاجتماعات كانت ناجحة، وأعربوا عن أملهم في استمرار الجهود الدبلوماسية لإقامة علاقات اقتصادية واجتماعية وثيقة، وبعد أن أنهوا حديثهم كان أول سؤال حول ليتفينينكو: هل لبوتين أن يرد على تهمة أنه المسؤول عن وفاته؟

عادة ما يظهر بوتين ثقة بالنفس زائدة في مؤتمرات صحفية كهذه، لكنه حينها أجاب برعونة: «أن يتوفى أي شخص فهذه مأساة دائمًا»، هكذا بدأ، ثم قدم تعازيه لعائلة ليتفينينكو، وكما تعامل مع جريمة قتل بوليتكوفسكايا، حاول أيضًا أن يقلل من شأن الضحية، ويعتم على الظروف، وقال إن الأطباء البريطانيين لم يشيروا إلى أنه «موت عنيف»، وأشار إلى ضرورة أن تتحمل السلطات البريطانية مسؤولية حماية المواطنين في البلاد. وعرض مساعدة روسيا إذا كان هناك مسوغ لإجراء تحقيق، وحث البريطانيين على عدم «دعم أي توجه لتضخيم أي فضائح سياسية لا أساس لها»، وأما بالنسبة إلى الملاحظة، فتساءل لماذا لم يعلَن ذلك عندما كان ليتفينينكو على قيد الحياة؟ ثم عقَّب: أما إذا كانت قد كُتبت بعد وفاته فليست هناك حاجة إلى التعليق. وأضاف أن «الناس الذين فعلوا هذا ليسوا ملائكة، والسيد ليتفينينكو- للأسف- ليس لازاروس»، وأشار إلى أن «من المؤسف حقًّا أن

توظف هذه الأحداث المأساوية مثل وفاة شخص لاستفزازات سياسية». وكما فعل في قضية بوليتكوفسكايا، سعى بوتين إلى إلقاء اللوم في ملعب آخر هم أعداؤه، ولم يبين في تصريحاته المقتضبة وغير اللبقة أن الروس يستنكرون هذا العمل الذي لا يمكن أن يكون من فعلتهم.

لا يوجد أي دليل مباشر حتى اليوم على تورط بوتين في وفاة ليتفينينكو، أو بوليتكوفسكايا، أو أي من الجرائم الغامضة الأخرى التي لا تزال عالقة وتحمل بصمات الاغتيال السياسي خلال حكمه، لكن بكل الأحوال فإن مكانته اليوم في الغرب انخفضت إلى حد كبير، وقليل من يشكك في ذلك. وعلى أقل تقدير فقد خلق مناخًا جعل من الاغتيال السياسي أمرًا طبيعيًّا على نحو مروِّع.

في أعقاب تسمم ليتفينينكو، برزت حالات قديمة على السطح، واكتسبت فجأة أهمية جديدة؛ فيوري شيشيكوشيخين عضو في البرلمان، وصحفي يعمل أيضًا في صحيفة بوليتكوفسكايا، توفي في عام 2003م بعد مرض مفاجئ يفترض أنه التسمم. وكان كتب مقالًا حول التحقيق المتوقف اليوم، وكاد يظهر على السطح بعد ثلاث سنوات وسط تجدد الدسائس. حالة وفاة غريبة أخرى طالت رجلًا يقال إنه عمل وسيطًا في قضية يوكوس في عام 2004م؛ وهو رومان تسيبوف، أحد معارف بوتين في التسعينيات، توفي بطريقة تنبئ بحالة ليتفينينكو على نحو مخيف: مات بمرض إشعاعي بعد أيام فقط من دعوته لاحتساء كأس من الشاي في مقر الـ FSB في بطرسبورغ[16].

كان تسمم ليتفينينكو يحمل كل تعقيدات رواية جون لو كاريه ومكائدها، وينقصه فقط ترابط الدافع ومناخية انحلال العقدة. وبالعودة إلى موسكو، لم يتصرف لوجوفوي وكوفتون كما لو أنهما مشتبه فيهما، إذ اتصل لوجوفوي مرتين بليتفينينكو بعد أن علم بمرضه، وقبل أن يعرف أحد بحالته، وهذا التصرف لا يمكن أن يأتي من قاتل، وعندما برز اسمه على أنه أحد الذين التقوا ليتفينينكو في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني، جاء بنفسه إلى السفارة البريطانية، ووافق على لقاء الدبلوماسيين ليوضح الحالة، ويعلن استعداده لمقابلة محققين

بريطانيين، وكان الكرسي الذي جلس عليه في السفارة قد تلوث بإشعاعات البولونيوم-210 حتى إن السفارة أغلقت الغرفة[17].

في اليوم التالي لوفاة ليتفينينكو، أجرت إذاعة صدى موسكو لقاء إذاعيًّا معه ومع كوفتون، وأعربا عن صدمتهما من هذه القضية برمتها، واستمرا في حديثهما أشهرًا عدة، نافيَين أي تواطؤ لهما في وفاته، وأصَّرا لاحقًا أنهما ضحيتان مقصودتان، سواء كانا مع ليتفينينكو أو ضده أو بدلًا منه؛ قال كوفتون: «أن تقتله، وبهذه الطريقة المتهورة، شيء عصي على الفهم»، وأصرَّ على أنه لو استؤجر هو ولوجوفوي ليَقْتلا، وأرسلا إلى لندن، لكانا قد أرسلا لملاحقة مطلوبين أكثر على قائمة أعداء روسيا، وليس إلى شخص مثل ليتفينينكو.

في الواقع، كان لوجوفوي قد التقى بيريزوفسكي قبل يوم من تسمم ليتفينينكو، «كان لوجوفوي يلتقي دائمًا بيريزوفسكي وزكاييف معًا، وما دام أن لديه الفرصة لِلِقاء أي منهما، فسيسهل عليه قتل الهدف الأكثر أهمية»[18]. في العالم الغامض الذي يسكنون فيه، فإن هذه الحجة المنطقية تمنح مزيدًا من الفهم، وقد بذل بوتين قصارى جهده لتجاهل هذه المسألة، لكن المسؤولين الروس حاولوا بقوة تقويض الرواية التي بدأت تتكوَّن في جميع أنحاء العالم، فعلوا ذلك بحماس يزيد على ذاك الذي أظهروه في التحقيق في جريمة القتل نفسها. وعندما عثر على آثار البولونيوم -210 في جهاز كوفتون، أعلن مكتب النائب العام تحقيقًا معه بتهمة الشروع في القتل، وبعد شهر أُعلن عدم وجود دليل أو حتى تفسير، وأن وفاة ليتفينينكو كانت ترتبط بطريقة ما بالمحاكمات الجارية ضد يوكوس.

عندما ظهر بوتين في مؤتمر صحفي عقد في فبراير/شباط 2007م، رفض أن يكون ليتفينينكو حارسًا في حرس الحدود، إذ إنه غير منضبط، ونكث بولائه لمهنته، وفرَّ من البلاد؛ ومن ثم «فلا حاجة إلى تشغيله في أي مكان؛ فهو لا يخفي أي سر؛ فكل شيء سلبي يتعلق بخدمته وعمله السابق يمكن أن يقوله، تحدث به منذ مدة طويلة، ولهذا لن تجد شيئًا جديدًا فيما سيفعله لاحقًا»، وصرَّح بأن الأعداء الذين يسعون إلى إيذاء روسيا هم من «القلة

الهاربة التي تختبئ في أوروبا الغربية أو في الشرق الأوسط»، وكان يعني بوضوح نيفزلين وبيريزوفسكي، مشيرًا إلى قلَّة الأدلة لدى أولئك الذين اتهموه، وأن لهم يدًا بطريقة ما في وفاة ليتفينينكو، وأضاف: «لكنني لا أعتقد حقًّا بنظريات المؤامرة».

على الرغم من أن روسيا أصبحت أرضًا خصبة للمؤامرات، سواء كانت حقيقية أو متخيلة، فإن حالة وفاة ليتفينينكو، وبوليتكوفسكايا، وآخرين، تتحدى ذلك الانطباع الذي غرِس بعناية بأن بوتين رَأَس عصر التقدم والاستقرار، وتجدُّد الاعتزاز الوطني الذي محقته الفوضى العنيفة للتسعينيات.

كثير من النظريات يركز على نهاية ولاية بوتين الثانية رئيسًا للبلاد، التي كانت- بموجب القانون- تلوح في الأفق، ورأى بعضهم أن عمليات القتل استنهاض لإشعال انتفاضة شعبية قبل الانتخابات في عام 2008م، وبالطريقة نفسها التي عجل فيها مقتل جورجي غونغادزه في أوكرانيا بنهاية حكم ليونيد كوتشما. ورأى آخرون اليد السوداء لمن هم داخل روسيا الذين أرادوا بقاء بوتين في السلطة. بهذا المنطق فإن العار الذي سيقع على بوتين من جرَّاء قتل الناقد في لندن، سيجبره على البقاء في منصبه لضمان حصانته من الملاحقة الجنائية.

وكان بوتين سئل هل ينوي تعديل الدستور، والترشح لولاية رئاسية ثالثة حتى قبل أن يترشح لإعادة انتخابه لولاية ثانية[19]، ولكنه أصرَّ مرارًا أن لا نيَّةَ لديه في تغيير الدستور، أو إزالة شرط المدة من رئاسة قوية، وإن ظهرت مناشدات كثيرة تدعو لفعل ذلك. وكانت البرلمانات الإقليمية اقترحت إجراء استفتاء حول القضية يشمل كل أنحاء روسيا، من بريموريا في الشرق الأقصى إلى الشيشان. وأعلن المتحدث باسم البرلمان الشيشاني، دوكافاخا عبدوروخمانوف، رغبة رمضان قاديروف في أن يكون لبوتين ثلاث ولايات دستورية أو أربع، لا اثنتان فقط، بل يجب أن يحكم مدى الحياة إذا كان ذلك ممكنًا، قال: «يجب ألا يكون عدد الولايات هو من يحدد نهاية رئاسته، إنما السن وحالته الصحية»[20]، ومن ثم فإن أي إشارة من الكرملين، وأي مبادرة ترمي إلى توسيع مدة حكم بوتين، يمكن أن تمرر بسهولة، ولكن بوتين كان يعترض ويرفض ذلك، على الرغم من أنه لم يُثنِهم عن تلك المبادرات بجدية

أيضًا. ولأول مرة على الإطلاق كان للبلد آلية ديموقراطية قانونية لانتقال سلمي للسلطة، لكن حسب تصميم بوتين نفسه، فيستحيل أن نتصور أي شخص آخر في مهمته.

قال بوتين ذات مرة إنه فكر في البديل المحتمل له منذ لحظة توليه منصبه، لكن في ولايته الثانية بدأت مسألة الخلافة تهم بوتين وحاشيته بالطريقة نفسها التي كانت في أيام مرض يلتسين، أو كوتشما سيئ السمعة في أوكرانيا. وكشف عن قدر كبير عندما سئل، في مؤتمر صحفي عقده في ديسمبر/كانون الأول عام 2004م، عن خططه بعد تركه لمنصبه، وهل يفكر في العودة إلى السياسة في الانتخابات التالية، أي في عام 2012م؟ فقال مازحًا: «لماذا ليس في عام 2016؟». تحريفه الخجولة هذا لم يقدم جوابًا شافيًا للسؤال، لكنه اعترف بأنه- كما يلتسين من قبله- بدأ يفكر في (السيد) القادم من انتخابات عام 2008م، والذي كان يدعى على نحو غير مفهوم (الخيط الأساسي) للبلاد.

البحث عن وريث بوتين (الذي أطلق عليه عملية البحث عن خليفة) بدأت جديًّا في نوفمبر/تشرين الثاني عام 2005م، عندما أعلن الكرملين أن بوتين قد رشّح اثنين من أقرب مساعديه: ديمتري ميدفيديف رئيس أركانه، وسيرجي إيفانوف وزير الدفاع، وكان قد رقّى ميدفيديف لمنصب نائب أول لرئيس الوزراء الذي أنشئ حديثًا، في حين أصبح إيفانوف نائب رئيس الوزراء إضافة إلى وزير الدفاع. وكما هو حال بوتين قبل تعيينه من قبل يلتسين، لم يترشح أي منهما للمناصب، لكن يبدو إيفانوف من بين الاثنين الوريث الأكثر احتمالًا، فقد كان أكبر من ميدفيديف بثلاثة عشر عامًا، وقد ترفَّع إلى رتبة جنرال في الـ(كي جي بي). أما ميدفيديف- على النقيض من ذلك- فكان صبيانيًّا، محاميًا مكتبيًّا، شارك في تأليف كتاب قانوني، وحاضر في كلية الحقوق بجامعة سانت بطرسبورغ قبل أن يلحق ببوتين إلى موسكو بصفته محاميًا موثوقًا به.

ادعى بوتين أنه لن يختار أيًّا منهما، لكن خلال الأشهر التالية كان يبدو أن كليهما يجري إعدادهما للدور، فبدأا بالتسلل إلى الأضواء العامة لتلميع صورتهما، وراحا يقودان (حملة) لا يهم فيها سوى صوت وحيد ولا شيء آخر: صوت بوتين.

كلاهما اليوم يتوليان أدوارًا بارزة في المبادرات السياسية، إذ أشرف ميدفيديف على خمسة مليارات دولار تصرف على (مشروعات وطنية) في مجال الزراعة والإسكان والتعليم والرعاية الصحية؛ أما إيفانوف فأعاد هيكلة الجيش، وفي عام 2006م تولى لجنة جديدة تشرف على المشتريات العسكرية. وبدأا يظهران في التقارير الإخبارية المسائية، وبالتأكيد أكثر من رئيسهم الرمزي، رئيس الوزراء غير المنحاز، الذي يدير الحكومة، ميخائيل فرادكوف، الذي أصبح معروفًا بافتقاره إلى أي أهمية سياسية جوهرية في السنة الأولى من ولايته.

مع تزايد التكهنات واجه الاثنان؛ ميدفيديف وإيفانوف؛ أسئلة متكررة عن تطلعاتهما السياسية، وأصبحا داهيتين في هذه المسألة. وفي بلاط بوتين، لم يجرؤ أحد على أي حملة علنًا، حتى إن كانت تتضمن طموحات سياسية خاصة بهم، وبدلًا من ذلك كانوا يتآمرون.

السيطرة السياسية الحديدية لبوتين تكذِّب الصراع الداخلي الذي يؤثر في اختياره النهائي، وكان امتدادًا للصراع من أجل السيطرة على إعادة توزيع الأصول التي نسَّقها الكرملين بجدية في ولاية بوتين الثانية[21]. وكما هو الحال في أي بلاط فلا بد من ظهور المنافسات؛ فإيجور سيتشين الذي ازدادت سلطته مع اكتساب روزنفت، لم يحب أن يصل أي من مساعدي بوتين إلى الرئاسة، وكان يفضل النائب العام فلاديمير أوستينوف، الذي كان له دور مهم في شؤون يوكوس، والذي كان نجله قد تزوج من ابنة سيتشين، وكلا الرجلين- للأسف- يقال إن نسخة من أحاديثهم وصلت إلى مكتب بوتين في ربيع عام 2006م[22]؛ إذ سجلها خلسة نائب في وكالة مكافحة المخدرات في روسيا، التي كان يرأسها في ذلك الوقت فيكتور شيركيسوف، الزميل السابق لبوتين في الـ(كي جي بي) من بطرسبورغ. في المحادثة المتنصَّت عليها، يقال إن سيتشين أشار إلى أن بوتين قد يكون ضعيفًا، وأوستينوف سيكون البديل المناسب عنه، وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا فالفكرة ليست هنا؛ أوستينوف كان طموحًا بصورة واضحة، وتولى رئاسة اجتماعات النيابة العامة مع (الأثير الرئاسي)، ومن ثم كان الافتراض خطيرًا[23]. بتشجيع من إزالة خودوركوفسكي وبمباركة سيتشين، تعهد علنًا

في مايو/أيار 2006م بمحاكمة «الحالات الجنائية لأصحاب الرتب العليا» التي تشمل مسؤولين حكوميين، وكان لبعضهم سجال ضد ديمتري ميدفيديف.

أقال بوتين أوستينوف في الثاني من يونيو/حزيران، وفاجأ هذا القرار المجلس الاتحادي، الذي لا يزال لديه السلطة النهائية لتثبيت المدعي العام أو إزالته، وإن لم يعِد الاستقلال الذي كان يتمتع به تحت يلتسين بالتعرض لمناقشة ذلك. وفي إشارة إلى مدى التحوُّل الذي حصل في توازن القوى في السنوات السبع منذ فضيحة إزالة يلتسين ليوري سكوراتوف، صوَّت المجلس في اليوم نفسه على تأكيده قرار بوتين. لم يكن هناك أي نقاش، وكان التصويت بالإجماع تقريبًا، مع امتناع اثنين عن التصويت فقط. ألمح سيرجي إيفانوف إلى أن هناك (أسبابًا وجيهة) لمغادرة أوستينوف، لكن لم يقدم بوتين أي تفسير عام، ولم يفهم أحد وقتها أن الطرد كان الموجة الأولى من الاضطرابات السياسية تحت السطح، وتبع ذلك مقتل بوليتكوفسكايا وليتفينينكو. المعركة الخفية على وريث بوتين لم تفتضح أمام الجمهور حتى العام التالي مع التحقيق في مخزن أثاث تري كيتا (الحيتان الثلاثة)، وكانت هذه القضية هي التي يبحث عنها يوري شيكوتشيخن في تقاريره عندما توفي في ظروف غامضة.

في ذروة الضجة التي أثيرت حول التحقيق في ليتفينينكو أرسل بوتين ميدفيديف إلى الاجتماع السنوي لرجال الأعمال والنخبة السياسية في العالم في دافوس بسويسرا، في يناير/كانون الثاني 2007م. وبشيء من الحرج من حصيرة سميكة من الشَّعر البني، والذوق الموسيقي لأوائل الأمريكيين والبريطانيين الذين عملوا في المعادن الثقيلة، قدَّم ميدفيديف صورة السياسي الروسي الأكثر لطفًا من الحالة التي كان عليها بوتين أخيرًا.

كان في ذلك الوقت في الواحدة والأربعين، وكان طفل النخبة المثقفة الذي لا تعرف خلفيته في الأجهزة الأمنية. شب وترعرع عندما مدت البيروسترويكا جذورها، وهو يمثل

الجيل الجديد الذي لم تصلبه كثيرًا الشيوعية والحرب الباردة، حتى إنه تحدث قليلًا بالإنجليزية، التي اكتسبها من ولعه الدائم بموسيقى ديب بيربل.

في كلمته الرئيسة طمأن الحضور إلى أن غازبروم لا خوف عليها- مع أنها بعد أسابيع فقط علقت إمدادها إلى روسيا البيضاء- وادعى أن روسيا لديها النية الصادقة لتكون الشريك الموثوق به في مجال التجارة والاستثمار، على الرغم من دور الكرملين في الضغط على المستثمرين أمثال رويال دوتش شل. وكذلك تبنى الشعار الذي عممه الإستراتيجي السياسي لدى بوتين، فلاديسلاف سوركوف: (الديموقراطية السيادية)، قال ميدفيديف إن الديموقراطية لا تحتاج إلى نعوت، وكان على يقين أن النسخة الروسية هي حقيقية بما يكفي، وأضاف: «لا نريد أن ندفع أي شخص لكي يحب روسيا، لكننا لن نسمح لأحد أن يضرها أيضًا»، وتابع: «سنسعى جاهدين لكسب الاحترام لمواطني روسيا ولكل البلاد، على ألا يتحقق هذا عن طريق استخدام القوة، بل من خلال سلوكنا وإنجازاتنا».

بروز ميدفيديف في منتدى دولي- لكون دافوس طقس مرور للقادة السياسيين الطموحين في كل مكان- مهد له استقبالًا جيدًا وكبيرًا، وبدا أنه تأكيدٌ لظهور وريث بوتين.

دفاع ميدفيديف عن روسيا لا يختلف كثيرًا عن دفاع بوتين، لكن لهجته جعلت الحضور في دافوس يعتقدون أنه سيكون زعيمًا مختلفًا، وبعد أقل من أسبوعين أوضح بوتين في منتدى دولي آخر أنه كان يسير في خط أكثر تشددًا تجاه منتقديه في الغرب، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة. كانت الضجة التي أثيرت حول جريمة قتل بوليتكوفسكايا وليتفينينكو قد أثارت غضب بوتين، لكن الدافع المباشر للخطاب الذي كاد يلقيه هو قرار الرئيس بوش التفاوض على إقامة قواعد لنظام الدفاع الصاروخي الأمريكي في بولندا وجمهورية التشيك، ففي رأيه كانوا جميعًا من عجينة واحدة. وقد عارض بوتين بقوة قرار بوش بالتخلي عن معاهدة الحرب الباردة التي تمنع انتشار الدفاعات الصاروخية الوطنية، لكنه لانَ بعض الشيء حين طمأنه بتعهدات لإقامة صداقة جديدة بنَّاءة أكثر بين البلدين، ولكن بدلًا من ذلك جنح البلدان إلى مزيد من الابتعاد.

تريد الولايات المتحدة اليوم أن تضع محطات رادار وصواريخ اعتراضية في خاصرة روسيا، وهذا النشر الأمريكي- من وجهة نظر بوتين وقادته العسكريين- يمثل تحديًا لجوهر الردع النووي للبلاد، وهو الشيء الوحيد الذي نجا من انهيار الاتحاد السوفييتي وحافظ على بقاء مكانة بلاده قوة عظمى في روسيا. رد بنزق على مساعديه: «هذا يكفي بالنسبة إلي»[24].

للتعبير عن غيظه، اختار بوتين منتدى يسمى غالبًا دافوس لعالم الأمن القومي: مؤتمر الأمن السنوي في ميونخ، وفي التجمع الذي أقيم في فبراير/شباط 2007م، عقب الكلمة الافتتاحية للمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، ذهب بوتين إلى المنصة وبدأ تحذيره من القادم: «بنية المؤتمر هذه تتيح لي فرصة تجنب التهذيب المفرط، والمراوغة، والكلام المرضي القائم على الدبلوماسية الفارغة، إنها بنية تسمح لي أن أتكلم عما أعتقده بشأن مشكلات الأمن الدولي، وإذا بدت تعليقاتي جدلية، أو حادة، أو غير دقيقة لزملائنا، فأرجو ألا تغضبوا مني، وعلى كل حال فهذا ليس سوى مؤتمر»[25]، وأعرب- مازحًا- عن أمله ألا يشعل رئيس الجلسة الضوء الأحمر إيذانًا بانتهاء الوقت، وتبع ذلك قليل من الضحك غير المريح، وجاهدت ميركل، التي تجلس في الصف الأمامي، لترسم ابتسامتها.

مضى بوتين في حديثه: إن نهاية الحرب الباردة تركت العالم متأهبًا «بالذخيرة الحية، رمزيًّا أتحدث»، وكان يعني «الأنماط الأيديولوجية، والمعايير المزدوجة، وجوانب نمطية أخرى من تفكير كتلة الحرب الباردة»؛ فانهيار الاتحاد السوفييتي أنهى التقسيم الجيوسياسي في العالم، ولكن ترتب على ذلك ظهور قوة (القطب الواحد)، وخلق انقسامات جديدة وتهديدات جديدة، وزرع الفوضى في جميع أنحاء العالم؛ «عالم يكون فيه رئيس واحد، وسيادة واحدة»، وبدلًا من تخفيف حدة التوتر في العالم فإن «الإجراءات الأحادية الجانب، وكثيرًا ما تكون غير شرعية»، أسفرت عن مزيد من الحروب، ومزيد من الوفيات، أكثر مما كانت عليه في عالم منقسم؛ «أكثر من ذلك بكثير»، وكرر: «أكثر من ذلك بكثير».

وأضاف: «اليوم نشهد استخدامًا مفرطًا للقوة غير خاضع للسيطرة تقريبًا في العلاقات الدولية، القوة العسكرية، القوة التي تغرق العالم بهاوية دائمة من الصراعات، ونتيجة

لذلك ليس لدينا قوة كافية لحل شامل لأي من هذه الصراعات، ومن ثم يصبح إيجاد تسوية سياسية من المستحيل أيضًا. ونحن نشهد ازدراءً أكبر وأكبر للمبادئ الأساسية للقانون الدولي، والمعايير القانونية المستقلة تقترب أكثر فأكثر من النظام القانوني لدولة واحدة»، إذا غابت عن أحدكم هذه النقطة فالمخصوص بها الولايات المتحدة، التي «تجاوزت حدودها الوطنية في كل شيء، وهذا واضح في السياسات الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية التي تفرضها على الدول الأخرى. حسنًا، من منكم يحب هذا؟».

كانت ميركل تسمع خطابه بوجه متحجر، وكذلك الوفد الأمريكي الذي يجلس في الأمام إلى يسارها، ومن بينهم وزير الدفاع الجديد للرئيس بوش، روبرت غيتس، واثنان من أعضاء مجلس الشيوخ اللذان كانا بالصفة العادية في التجمع؛ جون ماكين وجو ليبرمان[26]، وفيكتور يوشينكو من أوكرانيا، الذي حارب بقوة في الانتخابات، الجالس إلى اليمين من ميركل. استمر خطاب بوتين اثنتين وثلاثين دقيقة، عرَّى بها الغرب، مقدمًا قائمة بالمظالم من معاهدات الحد من التسلح إلى توسيع حلف شمال الأطلسي، وتطوير الدفاعات الصاروخية، وصولًا إلى أسلحة الفضاء، وقد حدث هذا برأيه بسبب الغطرسة بلا رادع من قوة عظمى عازمة على السيطرة على العالم وفقًا لشروطها، بل إن هناك منظمات دولية أخرى تخضع لمطالبها، حتى إن مفاوضات ضم روسيا إلى منظمة التجارة العالمية تشابكت مع مطالب لا علاقة لها بقدر أكبر من حرية التعبير، ومنظمة الأمن والتعاون الأوروبي- التي انتقدت الانتخابات في ظل بوتين- أصبحت (أداة مبتذلة) تتدخل في الشؤون الداخلية للآخرين.

تفاوتَ رد الفعل في الفندق بين ذاهل وغاضب، وجاء الرد الأمريكي في اليوم التالي؛ إذ دافع غيتس عن الإجراءات الأمريكية، ولما كان ضابط استخبارات سابقًا ومدير وكالة المخابرات المركزية الذي قال إنه قد تطور بعد عقود منذ عام 1989م، وجه لومًا لطيفًا للرجل الذي يبدو أنه لم يتطور، فقال: «حرب باردة واحدة تكفي».

أصبح خطاب بوتين علامة فارقة في علاقات روسيا بالغرب، فسَّره كثيرون باللحظة الحاسمة، وشبهه آخرون بخطاب ونستون تشرشل في عام 1946م الذي قدَّم للعالم عبارة

(الستار الحديدي). كان هذا ما ينوي بوتين فعله بكل تأكيد؛ يريد أن يعزف على وتر الغضب والقلق العالمي من الولايات المتحدة في ظل قيادة جورج بوش: السجن في غوانتنامو، وتسليم السجناء لمراكز اعتقال سرية، وتعذيب المشتبه في أنهم إرهابيون، والحرب على العراق. ربما انتُقِد بوتين لتشديد قبضته في بلاده، وما ارتكب من فظائع في الشيشان وأماكن أخرى، وتسميم ليتفينينكو، لكن كثيرين حول العالم، ومن بينهم بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة، وافقوا على تقييمه، وهللوا علنًا لدولة وزعيم مستعد وقادر على توفير ندٍّ للقوة الأمريكية الجامحة؛ فهذه روسيا وليست فنزويلا أو إيران أو بعض الأعداء الآخرين الذين يتخلون بسهولة عن معاداتهم لأمريكا التي تلحق الضرر بالضعفاء وغير ذوي الصلة، وكتبت الصحيفة الألمانية (زود دويتشه تسايتونج) عن الخطاب الذي ألقاه بوتين بأنه تحذير يستحق أن نفكِّر فيه: «السبب الرئيس لكل الإخفاقات هي الطريقة الأبوية التي يتعامل بها الفائز بالحرب الباردة مع الخاسر»[27].

بوتين لم يغلق باب العمل مع الأمريكيين كليًّا؛ إذ كان يريد أن يعرض آخر مناورة جريئة لاستيعاب صواريخ بوش الدفاعية، ولكنه في السنة السابعة والأخيرة من رئاسته، وقد استعادت روسيا تبجحها الدولي بفضل ارتفاع عائدات النفط والغاز، التي تحدث ميدفيديف عنها بما فيه الكفاية في دافوس، وكان حديثًا ناعمًا مطمئنًا، لكنه بدا اليوم، بعد مرور أسبوعين، ضعيفًا.

كان بوتين يخطط لسياسة خارجية جديدة تكون أكثر تحديًا، بل وحتى أكثر عدائية تجاه الولايات المتحدة بخاصة، ولكن أيضًا- في أعقاب مقتل ليتفينينكو- تجاه بريطانيا. ذهب من ميونيخ لزيارة بعض بلدان الشرق الأوسط؛ في مسعاه لتوسيع قوة روسيا في مجال الطاقة مع أوبك (OPEC)، واصطحب معه في هذه الرحلة سيرجي إيفانوف الذي ترتبط وجهات نظره الصقورية بخطاب بوتين أكثر من خطاب ميدفيديف.

ظهور ميدفيديف لأول مرة في دافوس لاقى ترحيبًا من النخبة الدولية نفسها التي خاطبها بوتين من علٍ حاليًّا وعرَّاها، وبدأ يُنْظَر إليه على أنه الجبهة المتقدمة في السباق

الأولي غير الرسمي للانتخابات الرئاسية المقبلة، لكن بعد عودة بوتين إلى موسكو بأسبوع كان من رُفِّع هو إيفانوف؛ ومن ثم فهناك اليوم نائبان أوليان لرئيس الوزراء، وبدا إيفانوف الأكثر انسجامًا مع مزاج بوتين.

تباكي بوتين في ميونيخ كان له صداه أيضًا في المؤسسة العسكرية والأمنية، وأدى إلى تصاعد التهديدات والأعمال العدائية لا ضد الولايات المتحدة وحدها فحسب، وإنما ضد الأوروبيين أيضًا، وحذر قائد قوات الصواريخ الإستراتيجية الروسية أنه سيُعيد توجيه الأسلحة النووية في البلاد إلى بولندا وجمهورية التشيك إذا مضيا قدمًا في نشر المعدات العسكرية الأمريكية.

وفي أبريل/نيسان أعلن بوتين أن روسيا ستعلق التزامها بمعاهدة القوات المسلحة التقليدية في أوروبا، تلك المعاهدة التي كان التفاوض عليها في نهاية الحرب الباردة من أجل الحد من العربات المدرعة وبطاريات المدفعية، والطائرات الهجومية المنتشرة في جميع أنحاء القارة. كان دور بوتين المتعمد في ميونيخ أشبه بصافرة إنذار لأمة تشاركه المشاعر في الخيانة والحصار، فأطلق العنان لغضب مكبوت تجاه الأجانب، حتى الدبلوماسيين منهم. وعندما نقلت أستونيا نصبًا تذكاريًّا سوفييتيًّا للحرب من حديقة في عاصمتها تالين، واجهت شبكة الحواسيب في البلاد، في أبريل/نيسان 2007م، هجمات إلكترونية معطِّلة، تعقبها المسؤولون الأستونيون في أجهزة الحاسوب في روسيا، فكان من ضمنها أحد عناوين بروتوكول الإنترنت داخل الإدارة الرئاسية لبوتين[28]، وقد وصفت العملية بأنها حرب إلكترونية شنتها روسيا التي تزداد عدائيتها، ولم تعد تحترم سيادة جيرانها، وهذا بالضبط السلوك الذي اتهم به بوتين الولايات المتحدة.

حاصرت (ناشي)، المجموعة الشبابية المتشددة في روسيا التي أنشأها وأشرف على رعايتها الكرملين، سفارةَ أستونيا، واضطر الحراس الشخصيون للسفيرة الأستونية، مارينا كاليجوراند، إلى استخدام رذاذ الفلفل هربًا من الناشيين، الذين هُرعوا عندما غادرت المؤتمر الصحفي في محاولة لتهدئة التوترات بشأن النصب التذكاري، ثم هوجمت سيارتها

عند مغادرتها، وتكرر ذلك مع السفير السويدي الذي حاول زيارة السفارة الأستونية، وقوبلت تلك الخروقات للبرتوكول الدبلوماسي بالتسامح من قبل الشرطة الروسية المتشددة عادة، ومع ذلك لم يتوقف بوتين حتى الآن عن انتقاداته العلنية للهيمنة الأمريكية؛ ففي ذكرى يوم النصر السنوي الذي احتفي به في الساحة الحمراء، في 9 مايو/أيار، قارن الولايات المتحدة بالرايخ الثالث من حيث (احتقار الحياة البشرية)، والرغبة في حكم العالم من خلال الإملاء. وهكذا فإن استقرار العلاقات الدولية والبنية الأمنية التي شيِّدت بعد الحرب الباردة (العصر الذي يبشر بسلام جديد للقارة)، كان يتفكك من جراء التشنج من الوعظ المتبادل.

في هذه المرحلة وصلت دائرة النيابة العامة البريطانية إلى نتائج حاسمة في تحقيقاتها في تسميم ألكسندر ليتفينينكو، وأعلنت في مايو/أيار 2007م أن هناك أساسًا كافيًا لاتهام أندريه لوجوفوي بالقتل، لكن لم تكشف النيابة العامة أدلتها للجمهور، وخلصت النيابة البريطانية إلى أن الكرملين هو وحده المخوَّل بمثل هذه العملية الجريئة والمحفوفة بالأخطار. ورفضت روسيا رفضًا قاطعًا النظر في طلب بريطانيا تسليم لوجوفوي، مستشهدة بدستورها الخاص الذي يمنع تسليم مواطنيها، وبالنفاق البريطاني إذ رفضت مناشدات روسيا العديدة بشأن إحالة بوريس بيريزوفسكي إلى العدالة في روسيا.

في أبريل/نيسان أبلغ بيريزوفسكي صحيفة الغارديان أنه كان يموِّل بكل فاعليَّة الجهود الرامية لانطلاق ثورة جديدة في روسيا في أوساط النخبة السياسية ورجال الأعمال، الذين هم- كما يعتقد- الأمل الوحيد في التغيير، لا الانتخابات المقبلة لخليفة بوتين، وأضاف قائلًا: «من غير الممكن تغيير هذا النظام من خلال الوسائل الديموقراطية؛ لا يمكن أن يحدث أي تغيير دون قوة وضغط»[29]. أعلن الكرملين أن تهديد بيريزوفسكي يعدُّ انتهاكًا لقانون التطرف الجديد وجدد المطالبة بتسليمه.

عقد لوجوفوي مؤتمرًا، بدا احتفاليًّا، أمام الصحافة، وسخر من الاتهام، واتهم بالمقابل جهاز المخابرات الخارجية البريطاني، الذي حاول تجنيده، والفرع الإسباني للمافيا الروسية (على الأرجح ردًّا على اجتماع ليتفينينكو والسلطات هناك)، وبيريزوفسكي هو

نفسه الذي قتل الرجل الذي كان يدعمه ماليًّا ذات مرة، وقال: «هو نفسه كان ملوثًا بمادة البولونيوم- 210؛ لاستخدامها مستقبلًا في فضيحة سياسية»[30].

المشهد زاد الشكوك في روسيا؛ فجريمة ليتفينينكو- كما هو حال جريمة لبوليتكوفسكايا وغيرهما- تعد جزءًا من مؤامرة مدروسة لإملاء نتائج التحول السياسي في روسيا، وكانت الأسئلة الوحيدة المتبقية هي هل كان المتآمرون داخل روسيا أو خارجها؟ وهل كانوا يتآمرون لإبقاء بوتين في السلطة أو لإجباره على التخلي عنها؟

في يونيو/حزيران، بعد يومين من طرد بريطانيا أربعة دبلوماسيين روس ردًّا على رفض روسيا تسليم لوجوفوي، اعتقلت الشرطة البريطانية روسيًّا غامضًا وصل إلى لندن بوثائق مزورة، كان يشتبه بنيته قتل بيريزوفسكي، وطُرد من البلاد[31]. وفي يوليو/تموز كانت مقاتلات سلاح الجو الملكي مضطرة إلى اعتراض القاذفات الروسية TU - 95 الإستراتيجية، التي كانت على ما يبدو تختبر الدفاعات الجوية البريطانية كما كان يفعل الاتحاد السوفييتي في الحرب الباردة، وكأن الدب السوفييتي قد استيقظ بعد عقدين من سباته.